المشهد المسيحي في القدس - الإرث بين الحاضر والمستقبل

جوزيف حزبون

ما أجمل أن نجتمع عصر هذا اليوم لنشكل فسيفساء رائعة من مؤسسات المجتمع المدني ورؤساء الكنائس والقيادات الدينية والمدنية، وكوكبة من ممثلي القنصليات الأجنبية، فلطالما كانت فلسطين -على مر العصور - بلداً منفتحاً على التعددية. وموضوعنا اليوم هو موضوع عزيز على قلوبنا: الجماعة المسيحية وحضورها في المشهد المقدسي الفلسطيني.

قيل عن وينستون تشيرشل: "الأمّة التي تنسى تاريخها، ليس لها مستقبل" -

لطالما دغدغت هذه الجملة آذاني، ولكنني أعترف أنني لم أبدأ بفهم معانيها إلا مؤخرا. فاسمحوا لي أن أشارككم ثلاثة مشاهد واقعية من حياتنا الفلسطينية تحمل أيضاً دلالات مهمة لموضوع لقائنا اليوم، وساهمت في تعميق فهمي لمقولة تشيرشل، وبلورة بعض أفكارنا وبرامجنا.

المشهد الأول: ساحات إحدى الجامعات الفلسطينية

تلتقي مجموعة من الفتيات للمرة الأولى فيتعارفن ويتجاذبن أطراف الحديث، وإذا بهنّ يكتشفن أن بينهنّ طالبة فلسطينية مسيحية مقدسيّة. هذا الاكتشاف يثير في نفوس الطالبات الفضول، فهي بالنسبة لغالبيتهنّ وهنّ إما من مدن شمال فلسطين أو من قرى بعيدة عن المدن، وبالتالي هي المرّة الأولى التي يكتشفن فيها أنّه يوجد في فلسطين مسيحيين فلسطينيين، أو هي المرة الأولى التي يلتقون بها بأحد أبناء هذه الجماعة التي سمعوا عنها بالاسم. وهنا يبدأ الفضول وتبدأ الأسئلة: ما ذا تأكلون وماذا تشربون؟ هل تعرفون المنسف والمقلوبة والمحشي والملفوف؟ أين تعيشون؟ ماذا تعملون؟ حتى انتهى بأحد الطلاب المسيحيين أن قال لزملائه: يا جماعة أنا لستُ كائنا فضائيا، أنا من كوكب الأرض مثلكم تماما، آكل ما تأكلون وألبس ما تلبسون.

ثم تبدأ مجموعة أخرى من الأسئلة دافعها الرئيسي الفضول والرغبة في المعرفة، وهي مسألة قوامها وأساسها ما يعرفونه من القرآن عن المسيحية: هل تؤمنون بثلاثة آلهة؟ هل صلب المسيح؟ كيف يكون المسيح إلها وإنساناً؟ ما هو الثالوث؟ وغيرها من الأسئلة. من أين أنتم ومتى جئتم إلى فلسطين؟

بخصوص الأسئلة الدينية: إذا كان الطالب المسيحي له إلمام ومعرفة أو كان عنده من ينصحه من المقربين، سيجيب عن هذه الأسئلة بما تيسر من معلومات، ويتجاوزوا الموضوع ثم ينطلق مع أصدقائه ليبني علاقة زمالة وصداقة تدوم سنين طويلة؛ أما إذا كان جاهلا وشعر بالحرج، فمن الطبيعي أن يتجنب مجموعة الزملاء هذه وينزوي مع بعض رفاقه المسيحيين ليعيشوا حياتهم الجامعية في عزلة، ولهذه العزلة ما لها من تأثير سلبي على العلاقات بين المسلمين والمسيحيين على السواء.

المشهد الثاني: هجرة الكفاءات

إلى اليوم، عندما نطرح السؤال: ماذا نفعل لنحدّ من هجرة المسيحيين؟ الجواب التقليدي هو: وفّروا للشباب التعليم والعمل والمنزل، وسيبقون في بلادهم راسخين. ولكن، إزاء هذه الشعارات التي تم الاستثمار فيها على مدار عشرات السنين، لدينا ملاحظات مغايرة من المشهد الواقعي مفادها باختصار: فلانة تعمل منذ عقد ونيف في مؤسسة محترمة، وزوجها لديه عقد عمل جيد، يملكون منزلهم الخاص في القدس وأولادهم تعلموا في

مدارس مسيحية. فما كان منهم على حين غرة إلا أن استقالوا من أشغالهم، وباعوا منزلهم، فجمعوا مستحقاتهم وهاجروا ليبدأوا حياة جديدة في الخارج. وقد تكرر هذا المشهد مع أكثر من عائلة. وهذا حملنا على التساؤل: إذا كان العمل والمنزل والتعليم كلها متوفرة، فلماذا هاجروا؟ لا بد من وجود سبب آخر أعمق دفعهم إلى الهجرة.

المشهد الثالث: حوار مع أحد الشباب

خلال حديث عابر مع مجموعة من الشبان حول أهمية بقائنا كمسيحيين في الأرض المقدس، أرض يسوع والإنجيل. كان جواب الشاب صادماً: "لماذا نبقى هنا تحت الاحتلال والظروف الاقتصادية الصعبة وعدم توفر الفرص؟ لماذا لا نعود إلى أوروبا"؟

"نعود إلى أوروبا"؟ وهل أتينا من أوروبا حتى نعود إلى هناك؟ من الواضح أن هذا الشاب، وكثيرين غيره تأثروا مما يقرأونه -أو لا يقرأونه- في مقررات التعليم الفلسطينية في المدارس: فالمسيحي بالنسبة لهم هو إما هو نتاج حروب الفرنجة – ما يعرف باسم الحروب الصليبية- أو هو نتاج حملات التبشير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

تحمل هذه المشاهد الواقعية دلالات غاية في الأهمية. منها وعلى رأسها: جهل بالهوية والتاريخ. فمن ناحية، الفلسطيني – المسلم والمسيحي على السواء – لا يعرف عن تاريخه شيئاً وذلك لأن كتب التاريخ في المدارس تتحدث عن تاريخ العرب والمسلمين، فهي من ناحية تعالج الإسلام وانتشاره وتشكل الشعوب العربية واحتلال (فتح) البلدان المختلفة وانتشار الإسلام فيها؛ وهي من ناحية أخرى تبدأ التاريخ مع الدعوة الإسلامية وترمي ما سبقه تحت غطاء الجاهلية. فكيف يمكن للفلسطيني أن يعرف تاريخه وتاريخ فلسطين والقدس إذا كانت المدرسة لا تقدم أي معلومة بهذا الشأن؟ غياب أي ذكر للمسيحيّة والجماعة المسيحيّة الفلسطينيّة ونشأتها وتطورها، أدى إلى أزمة هويّة لدى الفلسطيني المسيحي. من هو؟ من أين أتى؟ وفي ظل انتشار معلومات مبهمة غير واضحة حول حروب الفرنجة وحملات التبشير، يميل الطالب المسيحي والمسلم على حدّ سواء إلى الاعتقاد أنّ جذوره أوروبية إما من القرن الحادي عشر مع الفرنجة أو من القرن الثامن عشر مع الحملات التبشيرية؛ وهنا ينظر المسلم إلى المسيحي على أنّه دخيل على الوطن الفلسطيني، وينظر المسيحي إلى نفسه على أنه دخيل على هذا البلد ويبدأ في التفكير في الهجرة كمهرب من الاحتلال وسطوته، ومن التطرف الإسلامي المتنامي، بينما غالبيّة الفلسطينيين المسلمين هم مثل الفلسطيني المسيحي يعانون سطوة الاحتلال ويؤرقهم التطرف.

ترافق هذه الأزمة العميقة، أزمة انتماء. فمن دون شعور قوي بالانتماء إلى الأرض، أرض يسوع والكنيسة الأولى، يصبح قرار الهجرة سهلاً. ومهما وفرنا من فرص وإمكانيات، لن يصمد المسيحي لأنه لا يشعر بالانتماء.

ومن هنا، تكتسب مقولة تشرتشل أهمية كبيرة في فهم أهمية التاريخ ودوره، لا للماضي والعيش على أمجاد الماضي، بل لفهم الحاضر وما يشكّله من تحديات ويطرحه من مشكلات، فنستعد لبناء مستقبل آمن ومتين بناءً على فهم أصيل وحقيقي للواقع.

المسيحية هي ديانة مسيحية أصيلة (لمحة تاريخية)

يسوع المسيح، الذي إليه ننتسب جميعاً بصفتنا مؤمنين مسيحيين آمنا برسالته، وُلد في بيت لحم، وترعرع في الناصرة، وبشّر في أنحاء الجليل وعلى ضفاف بحيرة طبريا أجرى المعجزات وعلّم الناس، وفي شوارع أورشليم طاف يعلم ويحاجج علماء الشريعة والفريسيين، وفي القدس ألقي القبض عليه وعُذِّب وصُلب ومات وقُبر. وفي القدس قام من بين الأموات، ومنها صعد إلى السماء. فالمسيحيّة إذن هي الديانة التي وُلدت ونشأت وتبلورت في فلسطين ومنها انطلقت تبشّر بالمسيح إلى بقية أنحاء العالم.

بدأت المسيحية بصفتها شيعة يهودية أخذت تنفصل رويداً رويداً عن الهيكل حتى باتت جسماً منفصلاً قائما بذاته. كانت هذه الجماعة تلتقي في المنازل الخاصة التي سميت "كنائس منزلية" (Domus Ecclesiæ)، منها بيت كورنيليوس في قيصرية البحر، وبيت مريم والدة يوحنا مرقس في القدس. وقد شهدت فترة السلام المؤقتة (عام ٢٦٠ – ٣٠٣ م.) بناء كنائس أوسع في العديد من المدن، بحسب شهادة أوسابيوس القيصري، ابن فلسطين. عام ٥٠ ميلادية، التأمت جماعة الرسل في القدس، في أول مجمع عرف باسم "المجمع الرسولي" (Apostolic Council) وذلك للتداول في أمر غاية في الأهمية وهو مسألة انضمام الأمم الوثنية إلى المسيحية وقد تقرر عدم الإصرار على الشعائر والطقوس اليهودية، فكانت بداية الانفصال الفعلي بين اليهودية والمسيحية.

ففلسطين قبل القرن الأول لم تكن يهوديّة فقط! فعلاً، كانت اليهودية منتشرة في فلسطين، ولكن كان في فلسطين أيضاً من سكان الأمم الوثنية، فيها رومان ويونان وآراميين وفارسيين وجنسيات متعدّدة، وذلك منذ القرن الخامس قبل الميلاد على أقل تقدير. إذن فلسطين هي بلد التعددية اللغوية والإثنية والعرقية، بلد مضياف فيه مكان للجميع. في القرون الثلاثة الميلادية الأولى، انتشرت المسيحيّة إلى جانب اليهودية والوثنية. ولكن بين القرن الرابع والسابع، أصبحت المسيحيّة هي ديانة الأغلبية حتى قيل في منتصف القرن الخامس إن القدس كانت مدينة مسيحيّة بالكامل. بينما بقي في سائر فلسطين وثنيون وسامريون ويهود وغيرهم.

عام ٧٠ ميلادية، بعد ثورة دامت بضعة سنوات، تم اقتحام القدس على يد طيطس، وهدم الهيكل، ومعه انتهت الطقوس اليهودية المرتبطة بالهيكل. في هذه الفترة، تم تدوين معظم الأناجيل وتوثيق بعض تفاصيل حياة يسوع وولادته وآلامه وموته وقيامته.

عام ١٣٥، على أثر الثورة اليهودية الثانية، قضى الإمبراطور الروماني أدريان على الوجود اليهودي في القدس ومنع عودتهم إليها. شكّلت هذه الفترة بين العام ٧٠ والعام ١٣٥ اختفاء الجماعة المسيحية من أصل يهودي وتنامي الجماعة المسيحية من أصل وثني. وقام الرومان بإعادة بناء القدس تحت اسم إيليا كابيتولينا، وتم تسمية الأرض المقدسة باسم سوريا فلسطين، ومن ثم فلسطين. وذلك رغبة من الإمبراطورية الرومانية بمحو كل ما يمت إلى اليهود بصلة وتحويل القدس وفلسطين إلى ولاية رومانية.

عام ٣١٥ ميلادية، صدر مرسوم ميلانو الذي رفع الحظر عن ممارسة الديانة المسيحية وفي عام ٣٢٥ جاءت هيلانة، والدة الإمبراطور قسطنطين، إلى فلسطين فأنشأت بحسب المصادر أربع كنائس هي كنيسة المهد في بيت لحم وكنيسة القيامة في القدس وكنيسة الإيليونا على جبل الزيتون وكانت في البداية تحيي ذكرى الصلاة الربية (أبانا الذي) وذكرى حدث الصعود، إضافة إلى كنيسة مامري في الخليل.

وصف للأديرة والرهبان في أورشليم في النصف الثاني من القرن الرابع (بعد عام ٣٥٠ ميلادية)

ذكرت إيجيريا الحاجة في النصف الثاني من القرن الرابع) أعدادالرهبان والراهبات الهائلة الذين كانوا يشاركون في احتفالات الأسبوع المقدس في كنيسة القيامة، كما في غيرها من المزارات.

كان بطرس الأيبيري (من جورجيا) يعيش مع إخوته الرهبان في دير قرب برج داود.

عملت كل من ميلانيا الشابة وميلانيا الكبيرة على بناء عدد من الأديرة على جبل الزيتون.

يذكر أوكيريوس مستعمرة للرهبان على جبل صهيون.

كما ويذكر ثيودوسيوس ديراً للعذارى في الجسمانية في وادي يوشافاط: "هذا المكان هو أيضاً مغارة يقطن فيها اليوم ٢٠٠ راهب. وأسفل جناح الهيكل يوجد دير للعذارى".

بعد زيارة قبر أليعازر، يذكر الحاج من بياشنسا عددا من الأديرة على جبل الزيتون: "إذا نظرنا صوب تلك الأودية وفيما نعبر نحن بين العديد من الأديرة ومواضع المعجزات، نلاحظ وجود جمهور من الرجال والنساء الذين يعيشون في المناسك المنعزلة على جبل الزيتون".

هذه الملاحظة يكررها الحاج لدى زيارته لمجمع كنيسة "النيا - ثيوتوكوس" (الكنيسة الجديدة المكرسة لوالدة الله): "من صهيون وصلنا إلى كنيسة القديسة مريم، حيث يوجد رهبانية كثيرة العدد من الرهبان والنساء، وموائد ضخمة؛ ويبلغ عدد الأسرّة للمرضى ثلاثة آلاف سرير". من ناحية أخرى يقدّم بروكوبيوس القيصري لدى حديثه عن الكنيسة الجديدة "والدة الله" (الثيوتوكوس) التي رغب الإمبراطور يوستنيان ببنائها، وصفا لأعمال المحبّة التي كان الرهبان يقومون بها: "في ناحية من الطريق المؤدي للكنيسة... نجد مضافتين بناهما الإمبراطور يوستنيان، واحدة لاستقبال الحجاج الأجانب والثانية تستخدم مستشفى لفقراء المدينة. وقد وفّر الإمبراطور تكاليف بناء هذه الكنيسة الثيوتوكوس (والدة الله).

<u>الحقبة البيزنطية</u>

شهدت الحقبة البيزنطية، والتي بدأت مع نقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية من روما إلى القسطنطينية، حركة معمارية واسعة في سائر فلسطين. لذلك لا نكاد نحفر أي بقعة في فلسطين حتى نجد آثاراً بيزنطية وفسيفساء وكتابات. فقد ازدهر فن العمارة والرسومات والفسيفساء في تلك الفترة. تشير بعض الدراسات إلى إنشاء أكثر من ٤٠٠ كنيسة ومصلّى (Church/Basilica and Chapel) في حوالي ٣٧٠ تجمع سكني. فهل يعي الفلسطيني اليوم ما معنى ذلك وما دلالاته فيما يتعلق بتاريخ الفلسطيني المسيحي والمسلم على السواء؟

<u>الغزو الفارسي</u>

عام ٦١٤ ميلادية، غزا الفرس فلسطين، في إطار حربهم المستمرة مع الروم. واستجاب البطريرك زكريا لرغبة سكان القدس في رغبتهم في الدفاع عن مدينتهم ورفضوا الاستسلام. فدمرت المدينة وذبح سكانها وهُدمت كنيسة القيامة. وفي عام ٦٢٨ عاد الملك هرقل فهزم الفرس واسترجع البلاد. هذه الأحداث كان لها أثر كبير في القرار الذي اتخذه صفرونيوس، بطريرك القدس عام ٦٣٧ مع الغزو العربي. فقد آثر صفرونيوس إنقاذ حياة السكان بعد أن استولى العرب على معظم البلدات والمدن الفلسطينية، وقام بتسليم المدينة سلميا للخليفة عمر بن الخطاب، فأنقذ بذلك المدينة وسكانها من الدمار والهلاك.

عند مجيء الإسلام، شكّل المسيحيّون في فلسطين أغلبية، ولكن بعضهم اعتنق الإسلام وبعضهم ترك البلد. وبالتالي، من الفلسطينيين المسلمين من كان أصله مسيحي، وقد بقيت المسيحية أغلبية في فلسطين وذلك حتى القرن الثالث عشر.

حروب الفرنجة

عام ١٠٠٩، دمر الحاكم بأمر الله الفاطمي كنيسة القيامة، وفي تلك الفترة تنامت أعمال الاعتداء على الحجاج، وكذلك محاولة السيطرة على القسطنطينية، مما أدى في النهاية إلى نشوب حروب الفرنجة في محاولة من أوروبا المسيحية لحماية الشرق واستعادة فلسطين والأرض المقدسة. ازدهرت حركة العمران في هذه الحقبة، ولا نزال نرى اليوم بعض الكنائس والأبنية من تلك الحقبة. لقد تركت هذه الحروب أثرها الكبير على مفهوم العلاقة بين الغرب المسيحي وبين الشرق بمسلميه ومسيحييه، ولذلك يجب إلقاء نظرة علمية على هذه الحقبة وإعادة قراءتها بمنظور القرون الوسطى لا بمنظور اليوم. فكما يحنّ المسلم اليوم إلى تاريخ العرب المسلمين في الأندلس، كان المسيحي الأوروبي يحنّ في القرن العاشر والحادي عشر إلى فلسطين والشرق المسيحي الذي كان ملكا له، خاصة وأن جذور المسيحية وأهم مقدّساتها تقع في فلسطين غير الخاضعة له.

الحركة النسكية

بعد انتشار المسيحية وبناء الكنائس في القدس وبيت لحم، اشتدت الحركة النسكية وتنامت بصورة كبيرة حيث جاء النساك من كل أقطاب المعمورة ليقطنوا قرب هذه الأماكن. فقد شهد القرنين الثاني والثالث بداية الحركة النسكية في فلسطين مع القديس هيلاريون الذي ولد في قرية تباثا جنوب غزة عام ٢٩١ ميلادية وأنشأ فيها الحركة النسكية. أما القديس خريطون (نعمة الله)، فهو من مواليد إيقونيا في آسيا الصغرى، نزل هذا في برية يهوذا، شرق بيت لحم، في بداية القرن الرابع الميلادي. والقديس هيرونيموس اللاتيني، نزل بيت لحم حيث تنسك قرب كنيسة المهد وهناك قام بترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية بما عرف باسم الفولغاتا. في بداية القرن الخامس (٤٠٠+ ميلادي) قام القديس أفتيموس، وهو راهب من أرمينيا، برحلة طويلة من مسقط رأسه ليستقر أخيرا في صحراء يهوذا. لم يكن هدف القديس افتيميوس من الاقامة في فلسطين هو التعمق في الكتاب المقدس او دراسة جغرافية الكتاب المقدس، بل كانت رغبته الوحيدة تتمثّل في العيش والصلاة في الصحراء القريبة من المدينة المقدسة. وصول افتيميوس، حوّل بريّة يهوذا المقفرة الى جماعة مسيحية مزدهرة، فقد حفز مثال حياته وتواضعه عشرات ثم مئات، وأخيرا آلاف المسيحيين الى اتباعه ليعيشوا في برية يهوذا، الأمر الذي غير علاقة المسيحية بأرض الانجيل بصورة جذرية .

وارتبطت هذه الحركات النسكية باستقبال الحجاج الذين كانوا يتوافدون على الأرض المقدسة لزيارة الأماكن المقدسة والسير على خطى يسوع. وبالتالي كان الحج في تلك الفترة حجاً بكل معنى الكلمة. شهدت الأديرة الكبيرة، مثل دير القديس ثودوسيوس والقديس سابا، وجود جماعات إثنية مختلفة من كنائس مختلفة، كل منها تؤدي صلواتها وطقوسها الليتورجية بلغاتها الخاصة: اليونانية والأرمنية والجيورجانية وغيرها، وبالتالي شكّلت هذا الأديرة ملتقى للثقافات المتعددة. فرغم تأثر الحركة النسكية الفلسطينية بالنساك المصريين والسوريين، إلا أن نساك فلسطين تميزوا بطابعهم الدولي متعدد الجنسيات.

اللغة

من المهم جدا في هذا الإطار الإشارة إلى أن لغة سكان فلسطين، في القرون الأولى للمسيحية كانت الآرامية، وهي اللغة الدارجة المحكية، إضافة إلى اللغة اليونانية لغة الأدب والثقافة، واللغة اللاتينية لغة السياسة. ثم خلال الحقبة البيزنطية تنامت اللغة السريانية كوريثة للآرامية.

الحركة الأدبية والترجمات

لا شك أن الأديرة النسكية شكّلت في مرحلة من المراحل عصب حركة التأليف، خاصة فيما يتعلق بالردود على الهرطقات التي نشأت والحوارات مع الأريوسية والنسطورية وغيرها، ثم بعد ذلك في مسألة الأيقونات. وكان لدير مار سابا دوراً كبيراً في الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية والأيقونات.

كذلك لا بد من الإشارة إلى دور المسيحيين والرهبان في ترجمة العلوم والفلسفة الإغريقية / اليونانية إلى السريانية. وقد برزت في هذا المجال مدرستين واحدة في الرها (Edessa) والثانية في نصيبين. لذلك عندما استقر الأمر للعرب، وخاصة نحو نهاية القرن السابع الميلادي وبداية القرن الثامن الميلادي، وتم تعريب الدواوين واللغة، نشطت حركة الترجمة مرة أخرى ولكن هذه المرة من السريانيّة إلى العربية وذلك على يد المسيحيين السريان. البطريرك تيموثاوس الأول، أسقف بغداد، قام شخصياً بترجمة كتاب أرسطو "الموضوعات "من السريانية إلى العربية استجابة لطلب الخليفة. وفي عهد البطريرك تيموثاوس هذا اشتهر في بغداد ما عرف باسم بيت الحكمة. من أوائل من ترأس بيت الحكمة نعرف المسيحي العربي حنين بن اسحق الذي قام بنقل الكثير من الأعمال اليونانية الكلاسيكية إلى العربية ومنها: أعمال افلاطون وأرسطو والأفلاطونية الجديدة وبعض المؤلفات في الطب لهيبوكراطس وغالن. ويقال إن الخليفة دفع لحنين بن اسحق ثمن هذه الأعمال وزنها ذهباً. هذه صورة عن الجذور المسيحية في العصر العربي الذهبي. وبالتالي، يجب أن نتذكر دور المسيحيين الهام في نقل العلوم والفلسفة الإغريقية والذين عنهم نقلت أوروبا علومها. وهذا الدور المسيحي مجهول أو يتم التغاضي عنه وإهماله.

كذلك، كان الرهبان الناطقون بالعربية في أديرة فلسطين الخلقيدونية في القرن الثامن (٧٠٠ وتابع) هم أول من استخدم العربية أداة للتعبير عن اللاهوت المسيحي.

الفنون

لقد كان للأماكن المقدسة المسيحية أثراً كبيراً في تشكيل الفن المسيحي والتأثير على أهم خصائصه. فن العمارة سواء في الحقبة البيزنطية أو حقبة الفرنجة، هو فن هندسي يستحق الإشادة والدراسة. فن الفسيفساء والجداريات (murals) هو فن أصيل متجذر، وقد أقيمت مؤخراً مدرسة للفسيفساء في أريحا تحت رعاية الآباء الفرنسيسكان، وورشة أخرى في بيت لحم تحت رعاية Association Pro Terra Santa. ولدينا فن الأيقونات المنتشرة في الكنائس البيزنطية واليوم في الكنائس الشرقية والأرثوذكسية. كذلك النقوش الحجرية على جدران الأبنية أو على المدافن والقبور، والمعظَّمات (ossuaries) وخاصة الأوعية الخزفية (Ampulla) والحجرية والزجاجية المزخرفة بالرموز الدينية والتي كانت تستخدم لليتورجيا. يضاف إلى ذلك أجران المعمودية. خلال القرون الوسطى، وخاصة انطلاقا من القرن الخامس عشر، صناعة التذكارات المقدسة من خشب الزيتون والصدف، وهي صناعة ازدهرت بشكل متميز بعد زيارة الأب الفرنسيسكاني برناردينو أميكو الذي علّم البيتلحميين خصوصا فنون المقاييس بطريقة هندسية وطوّر حرفتهم بشكل ملحوظ فأبدعوا في صناعة مختلف أشكال

التذكارات والمجسمات والتماثيل. واليوم يوجد لمؤسسة يوحنا بولس الثاني مركز لتعليم صناعة خشب الزيتون والصدف والخزف.

التعليم

بادر الرهبان الفرنسيسكان إلى إنشاء أولى المدارس في فلسطين وذلك منذ القرن السادس عشر، تحت الاحتلال العثماني، حيث لدينا مصادر تذكر مدرسة في بيت لحم وثانية في القدس تعلّم الإيطالية والترنيم ومن ثمّ لغات أخرى ساهمت في تكوين أول مترجمين لمساعدة الحجاج خلال زياراتهم وشكّلت مصدر دخل للمسيحيين خاصة في القدس وبيت لحم. وفي القرن التاسع عشر، استقدمت حراسة الأرض المقدّسة (Franciscan Custody of the Holy Land) راهبات مار يوسف وأنشأت أولى المدارس المخصصة لتعليم الفتيات في بيت لحم والقدس، في فترة كان الاحتلال العثماني يسعى لزعزعة التعليم ومقاومة اللغة العربية.

من أعلام فلسطين المسيحيين في العصر الحديث

ويطول الحديث إذا ما خضنا في غمار الحركات القومية التي نشأت في نهاية القرن التاسع عشر بداية القرن العشرين وقادتها المتميزين وإنجازات القياديين المسيحيين في مجال التعليم والصحافة والسينما وغيرها. ولكن نذكر على سبيل المثال:

-بندلي الجوزي (١٨٤١-١٩٤٢): معلم ومتخصص في اللغة والتاريخ وقاوم تهويد فلسطين تحت الانتداب البريطاني
- نجيب نصار (١٨٧٣-١٩٤٨): شيخ الصحافة الفلسطينية وأسس صحيفة الكرمل
-عيسى داود العيسى (١٨٧٨-١٩٥٠): من أهم روّاد الصحافة العربية في فلسطين ومؤسس جريدة فلسطين
-خليل بيدس (١٨٧٤-١٩٤٩): اهتم بالتعليم والتاريخ والترجمة والتأليف. أصدر مجلة النفائس واشتهر بالفن القصصي والمنتوج الأدبي والفكري وقوامه ٣٠ كتابا في الأب والتاريخ والقصص.
بولس شحادة (١٨٨٢-١٩٤٣): أسس جريدة مرآة الشرق التي تبنت أقلام المعارضين الفلسطينيين، وكان عضوا بارزا في اللجنة التنفيذية الفلسطينية.
خليل السكاكيني (١٨٧٨-١٩٥٣): أديب وصحفي كان له أثره في تطوير أسلوب الكتابة الحديث. وقد أسس مدرسة وطنية في القدس أسماها المدرسة الدستورية.
وقد اختصرت صفحات طويلة من إنجازاتهم بسطر أو اثنين، لتجنب الإطالة.

اليوم

لقد ذكر الزميل أسامة في مداخلته أوجه الوجود المسيحي في القدس بمؤسساته وخدماته، وهي مؤسسات نفتخر بها بكل تأكيد. ولكن لا زلنا بحاجة إلى المزيد في مجالات أخرى. مثلا: من بين المصادر التي استخدمتها اليوم، مجموعة أوراق وأبحاث أكاديمية نُشرت في كتاب اسمه "المسيحيون والمسيحية في الأرض المقدسة" عمل على جمعها وإصدارها "مركز الدراسات المسيحية" التابع للجامعة العبرية في القدس. والسؤال الذي يجب أن نتأمل فيه: لماذا لا يوجد لدينا مركز دراسات مسيحية باللغة العربية في فلسطين؟ أو لماذا لا يتم تطوير فرع لدى إحدى المعاهد المسيحية ليتخصص بإنتاج فكري باللغة العربية؟ فلدينا عددا من مراكز الدراسات اللاهوتية والتراثية لدى مختلف المعاهد الدينية التابعة للفرنسيسكان والدومنيكان واليسوعيين وغيرهم، ولكن لا يوجد أي مركز يهتم بإنتاج مادة بالعربية. يوجد في بيت لحم "مركز اللقاء، للدراسات الدينيّة والتراثية في

الأرض المقدّسة"، وقد استقيت من نشراته بعض المعلومات، ولكنه يحتاج إلى دعم حقيقي ورؤية استراتيجية ليقوم بالدور الذي نحتاجه منه اليوم.

رغم أن المؤسسات المسيحية الفاعلة والناشطة في القدس ضخمة ومتعددة ومتنوعة، لكن الصورة قاتمة والمستقبل باهت، وذلك بسبب الاحتلال الذي يزيد من الضغوطات والتقييدات على المقدسيين، مسيحيين ومسلمين على السواء، إضافة إلى الاعتداءات المتنامية ضد المؤسسات المسيحية والمسيحيين وأهمها الاعتداءات التي تحدث في جبل صهيون ومخطط توسيع الحديقة العامة لتشمل جبل الزيتون، وهذه كلّها تقلق الجماعة المسيحية.

ولذلك، حتى نتحدّث بثقة عن مستقبل مسيحي صامد وواعد في القدس، يجب أن نعمل على عدّة أصعدة.
أولا، يجب أن نهتم بالاحتياجات المادية والملموسة للشباب المسيحي. وبالتالي المسكن، والتعليم، والعمل/الوظيفة، ستبقى دائما احتياج أساسي وضروري لتوفير الاستقرار اللازم.
ثانيا، الاستثمار في الهوية والانتماء وذلك بالعمل على إعداد الأطفال والشباب وتنميتهم تنمية حقيقية فيعرفون ماضيهم ومآثرهم.

بالتعاون مع مؤسسة يوحنا بولس الثاني، أنشأنا مركزا للتخطيط الاستراتيجي والاستثمار في الأطفال والشباب والتعليم والتوظيف، وذلك داخل أسوار البلدة القديمة في محاولة للبدء بإحداث تغيير مبني على تدخل استراتيجي ونوعي.

وبالإضافة إلى ذلك، نحن بحاجة إلى استثمار حقيقي وفعلي في بعض المؤسسات والمراكز القائمة حاليا ودعم برامجها في إطار خطة استراتيجية هادفة.

من هذه المؤسسات وعلى رأسها: الحركات الكشفية بصفتها المنتج الأول للقيادات الشابة. رغم أن هذه المراكز ناشطة، لكن بعضها يحتاج إلى ترميم وتحديث وتأثيث، كما إن الاستثمار في الإنسان وبناء قيادات شابة يحتاج إلى دعم متواصل وعلى فترة طويلة الأمد ضمن رؤية وبرامج استراتيجية.

يليها في الأهمية الأندية والمراكز الشبابية، بصفتها مراكز تعمل على صقل المواهب وتنمية أجيال منفتحة وصحية ذهنيا واجتماعيا وجسدياً. بعض هذه المرافق لا يصلح اليوم للاستخدام البشري، بعضها بحاجة إلى إعادة تأهيل، وبعضها الآخر يمكن تطويره ليقدم خدمات غير موجودة حاليا مثل برك سباحة نصف أوليمبية وملعب كرة سلة داخلي وغيره. يمكن لهذه المراكز أن تكون نقاط التقاء بين المقدسيين -مسلمين ومسيحيين على السواء- وتقوية أواصر الصداقة والعلاقات المجتمعية السليمة.

المدارس المسيحية تحتاج بدورها إلى رعاية وعناية خاصة، آخذين بعين الاعتبار أنّها مكان التقاء بين الفلسطيني المسيحي والمسلم وبناء صداقات وعلاقات متينة في ظروف الحياة اليومية الاعتيادية، وخاصة في ظل النقص الكبير في الصفوف الدراسية لخدمة المقدسيين. لذلك نحتاج إلى دعم هذه المدارس ومساعدتها على تطوير مرافقها وتوسيعها حيث يمكن التوسيع، ومحاولة الاستثمار في مدرسة الأقباط الأرثوذكس شبه المقفلة وذلك لخدمة أبناء البلدة القديمة ومدرسة تراسنطا في بيت حنينا وهي قيد الإنشاء والتطوير ومدرسة الوردية التي حصلت مؤخراً على رخص بناء وتوسيع وغيرها، ومدرسة المطران التي تحتاج إلى تحديث. وهذا فقط كمثال.

من أجل الاستثمار في الهوية والانتماء والحس الوطني، نحتاج إلى إنتاج مادة أكاديمية وعلمية عن تاريخ فلسطين منذ القرون الأولى الميلادية وحتى القرن الخامس عشر، أو حتى اليوم- وذلك في إطار مؤتمرات سنوية تنشر هذه الأعمال على مدار الخمس أو عشر سنوات القادمة، تكون نتيجتها مصادر ومراجع أكاديمية عربية حول تاريخ فلسطين غير المنقوص. وكذلك نحتاج إلى إنتاج منهاج أكاديمي عن تاريخ فلسطين في القرون السبعة الأولى يمكن أن تتبناه الجامعات الفلسطينية كمتطلب جامعي لنشر التوعية حول تاريخ فلسطين بين طلبة الجامعات.

إضافة إلى الاستثمار في مقومات الانتماء والهوية، لا شك أن المواطن المسيحي، مثله مثل المسلم، يحتاج إلى فرص عمل وإلى مسكن آمن ويناسب قدرته الشرائية. وعليه لا بدّ أيضاً من الاستثمار في مشاريع إسكان تباع أو تؤجر بأسعار معقولة ومقبولة، لا مشاريع ربحية أو تجارية تعجز الطبقة المتوسطة و/أو الفقيرة عن امتلاكها. توجد إمكانيات لإقامة مشاريع إسكان على بعض ممتلكات الكنيسة وبالتالي ضرورة توفير الدعم لهذه المشاريع.

نحتاج إلى تقديم الدعم للأديرة والحركات النسكية لأنها جزء لا يتجزأ من المشهد الثقافي والديني والتاريخي لمدينة القدس. وكذلك لأن ممتلكات هذه الأديرة بحاجة إلى حماية، وبحاجة إلى استغلال بطريقة مدروسة ومنهجية حتى يتم استخدامها لتصبح ممتلكات محمية ومنتجة، توفر فرص عمل وتدر الربح.

مستقبل الجماعة المسيحية في القدس يعتمد اعتماداً كلياً على صلابة مؤسساته المجتمعية بمختلف خدماتها، ويعتمد على الاستثمار الحقيقي والفعلي والمنهجي بالإنسان المسيحي وإعداده للعيش كعضو فعال ومنتمي ومنتج في مجتمعه، قادر على الصمود والحياة في القدس.

تاريخ المسيحية المفقود، عصر ذهبي قوامه ألف عام" للكاتب فيليب جينكينز"
فلسطين المسيحية من القرن الأول إلى القرن السابع" للأب ميكيلي بيتشيريللو الفرنسيسكاني"
مجلة اللقاء، نشرة عام ٢٠١٤
New Studies in the Archeology of Jerusalem and its Region by a number of authors
Christians & Christianity in the Holy Land by a number of authors